

دور جمعية العلماء في الثورة الجزائرية

تعريب : علي تابليت

جامعة الجزائر

إن الاستعمار الفرنسي للجزائر، والثورة الجزائرية وتنمية الجزائر ما بعد الاستقلال يشكلان سلسلة من التجارب المعقدة للجزائريين وللعديد من المؤرخين لتفسيرها جيدا، فهذه التجارب، خاصة الاندلاع المفاجئ للثورة الجزائرية في الفاتح من أول نوفمبر 1954، التي ولدت العديد من وجهات النظر غير العملية والسياسية بين العديد من الباحثين الذين سعوا لشرحها. ومع ذلك، فإن معظم البحوث حول الجزائر لم تصل إلى تفسير مناسب لأمّهات القضايا خاصة لماذا ثار الجزائريون ومن نظمهم، فالحاجة إلى بحث معمق لتفسير الثورة الجزائرية أدت إلى تأكيد العديد من الناس، خاصة المرحوم الدكتور محمد عدواني، فقد أكد العدواني في بحث له: « حول المنهجية العلمية لكتابة تاريخ الثورة » ذلك أن معظم الكتب المنشورة حول الثورة الجزائرية قد ركزت على الأفراد وليس على الثورة من منظور جماعي. فهو يؤكد أنه على المؤرخين أن يحصلوا على المعلومات من الذين شاركوا في الحرب بدلا من الاعتماد على الأرشيف الفرنسي، والذي سيؤدي لامحالة إلى وجهة نظر أحادية للموضوع.⁽¹⁾

وحسب عدواني فإن هناك العديد من العناصر في المجتمع الجزائري التي هي في حاجة أن تدرس ضمن السياق الاجتماعي الأهلي للجزائر نفسها، وأحد هذه العناصر هي تطوير الوطنية الجزائرية، فالعديد من المؤرخين ركزوا على هذه القضية وبرهنوا أن التطورات السياسية في الجزائر ما قبل 1954 كانت الحوافز الأساسية للثورة الجزائرية⁽²⁾ وابتداء من 1924 إلى 1940 فإن الوطنية الجزائرية أضحت واقعا ملموسا وبشكل أكبر وسط مجموعات صغيرة من الجزائريين المستأين والذين تأثروا إلى حد كبير بالمبادئ الغربية، خاصة الماركسية. فمصالي الحاج، العضو السابق للحزب الشيوعي الفرنسي، كان الوطني الرائد خلال هذه المرحلة، إذ أنه كون في 1924 « نجم شمال افريقيا » وصرح أن النجم يمثل التونسيين والمغاربة والجزائريين بباريس. وكان المطلب الوحيد والرئيسي لهذه الحركة استقلال كل بلدان شمال افريقيا. وبعد حل النجم في 1929، استمر مصالي في نشاطاته الوطنية في 1937، فأسس حزب الشعب الجزائري: الذي نقل فيما بعد إلى الجزائر، وتلا حزب الشعب الجزائري في عام 1945 حزب آخر تحت قيادة مصالي الحاج، باسم حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وتقدم مصالي

ببرنامج جديد من خلال هذا الحزب القائم الآن ضد الشيوعية ، وعلى الرغم من أنه عمل من خلال هذه الحركات الوطنية، لكنه فشل في النهاية حسب Janet Zagoria وذلك بسبب طريقته الفائقة والمستقلة في السياسة وأيضاً بسبب انعدام التعامل الجماعي .⁽³⁾

اعترف العديد من الباحثين بفرحات عباس كشخصية وطنية أخرى رائدة في الجزائر خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، إذ أعلن في عام 1943 بيان الشعب الجزائري مع عدة شخصيات وطنية والذي نادى فيه بتقرير مصير الجزائر ضمن الإطار الكلي الفرنسي. اعتبر هذا البيان كخطوة هامة في تطور الأمة الجزائرية حسب Joan Gillespie .⁽⁴⁾ لقد بدأ عباس في عام 1946، بتغيير موقفه الاندماجي وشارك في إنشاء ورئاسة الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري: والذي أكد فيه على الشخصية الجزائرية الثابتة، استعاد عباس نشاطاته الوطنية وانضم إلى القوى الثورية في عام 1956، وأصبح فيما بعد أول رئيس للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في سنة 1958، فهذه الحركات السياسية المنكرة (هذا المقال للأستاذ فهد

عبد الله السماري، نشر في مجلة. 83-102 , (1986) JUSUR 2
من جامعة University of California River Side لم أتمكن
من الاتصال به. فمعذرة أيها الأستاذ الفاضل.)

التي قادها وطنيون متأثرون بالأيديولوجيات الغربية، كان لها
وقع كبير على التطور اللاحق للوطنية الجزائرية، بالطبع هناك
جهود سياسية أخرى التي تغاضى عنها العديد من المؤرخين،
وأهم هذه الجهود في نظرنا هو ازدياد الوطنية الإسلامية
الجزائرية. فدور الإسلام في التجربة الجزائرية أحد القضايا
الرئيسية التي أهملت في الكثير من أدبيات الثورة الجزائرية.
فعلى سبيل المثال، حلل فرانس فانون في كتابه الهام ، معذبو
الأرض، الثورة الجزائرية واستعملها كدراسة حالة ليثبت
نظريته، تصفية الاستعمار بالعنف، وأن أحد هذه الحجج
الرئيسية لهذا الكتاب هي نظرية العنف. ففانون يؤكد أن هذا
العنف هو تطهير القوة، التي تحرر الأهلي من عقدة النقص⁽⁵⁾
فهذا الافتراض يصعب إثباته لأن عددا قليلا إن لم يكن لا أحد
من الجزائريين في جبهة التحرير الوطني يعرف تبرير معركة
الجزائر، فعلى سبيل المثال، كان بالإمكان تطهير مشاركتها

من إذلال الاستعمار⁽⁶⁾ أضف إلى ذلك، أن الثورة الجزائرية لم تكن في الأساس ثورة اجتماعية قائمة على الصراع الطبقي حسبما حاول فانون وآخرون إثباته، فالشكل الأساسي لتحليل فانون هو جهله الدين الإسلامي وتأثيراته على الجزائريين في نضالهم ضد الفرنسيين. فالمعضلة المشتركة مع معظم أعمال المؤرخين حول الجزائريين هو سوء تفسيرهم للإسلام.

فهذا Alistair Horn في كتابه "حرب همجية للسلم"، يؤكد أن مؤرخي الثورة الجزائرية يلاقون صعوبة كبيرة في الحصول على معلومات ملائمة من المشاركين الجزائريين الواجب نحو الالتزامية الأساسية لتعليم الدين الإسلامي الذي يوحى أن الإنسان مقيد بشكل صارم في قدرته لرسم مصيره.⁽⁷⁾

فهذا الموقف تجاه الإسلام والمسلمين لازال جليا في معظم أعمال المثقفين الغربيين والقائم على رؤيا حسبما يؤكد المرحوم إدوارد سعيد، أن العالم الإسلامي يختلف جذريا عن الغرب في نظامه القبلي والإيمان بالقضاء والقدر، والصفة الرجعية، وأنه بالنسبة لمعظم المثقفين، فإن العالم العربي يعتبر شاذًا،

ومتأخرا ، وأدنى درجة. ووفقا لإدوارد سعيد فإن الإسلام يعتبر فكرة تجرية وليس تجرية على الإطلاق⁽⁸⁾.

و هكذا فإن معظم الذين كتبوا عن الجزائر في القرن العشرين لم يضعوا الإسلام في محور تحاليلهم⁽⁹⁾.

و إنه من القناعة هنا أن العناصر الرئيسية للهوية الجزائرية التي صاغت الصورة الذاتية لمستقبل هذه الأمة هي: الإسلام، الوطنية، والانتماء العربي الإسلامي، وسيتضح من خلال هذا البحث أن الإسلام كان المركز الأعظم للمقاومة الجزائرية حتى نهاية الثورة الجزائرية في عام 1962.

فالحركة الإصلاحية في الجزائر تشكلت من العلماء التي أشير إليها أعلاه، فامتدادها ، مهما يكن، قد استخف بها، وتأثيرها على الجماهير، وعليه فإن الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر ستكون المحور الرئيسي لهذه الورقة، خاصة خلال فترة 45 - 1954 في محاولة لاستكشاف الخلفية الاجتماعية والسياسية للثورة الجزائرية بصفة عامة. فالجزائر استراتيجية تقع في منطقة معتدلة المناخ من شاطئ جنوب البحر المتوسط

ويتكون سكانها في الأصل من البربر ثم من العرب، لاحقا، حيث هاجر أسلافهم الرعويون إلى الجزائر في العصور الوسطى. وشكل العنصر العربي أغلبية سكان الجزائر وهم الجماعة العرقية المهيمنة في البلاد، فلفتهم عربية، وهي لغة الأغلبية أيضا ويتكلم بها الجميع، فالبربر يعيش معظمهم في منا طق منعزلة في الجبال داخل مجموعاتهم، ويشكل البربر أكثر من مليونين من مجموع السكان وفيهم: القبائل، والشاوية، وبني ميزاب والتوارق في مختلف مناطق الجزائر يعيشون في وئام وسلام وأمن مع كامل السكان. ليس هناك اختلاف ومانع بين هذه المجموعات فجميعهم يتدين بالدين الإسلامي ، الذي يؤكد بصرامة على المساواة ويمنع قطعيا العنصرية، وإلى جانب هذه المجموعات من الأهالي فإن مجتمع الجزائر المستعمرة امتص مجموعات عرقية أخرى أجنبية أيضا، ومع بداية الثورة قدر عدد السكان الأوروبيين في الجزائر بأكثر من مليون نسمة، معظمهم غير فرنسيين.

فالإسلام، هو دين لما يربو عن 95% من الشعب الجزائري، وأزيد من 350.000 يهودي عاشوا في الجزائر، ولكنهم خانوا العهد

وحسن الضيافة، بحيث كان 25.000 منهم قبل الاحتلال يعيشون بتقاليدهم و هويتهم الدينية والاجتماعية، مع العلم أنهم تعرضوا لبعض المضايقات من أتراك الجزائر. وأغلبية الجزائريين من السنة ومن المذهب المالكي، وهناك في الجنوب جماعة وادي ميزاب على المذهب الإباضي في المدن السبع.

فالمعتقدات الإسلامية قد ترسخت في المجتمع الجزائري منذ أن حل الإسلام إلى شمال افريقيا مع الفتح العربي في القرنين السابع والثامن الميلاديين⁽¹⁰⁾.

وفي 1830 احتلت فرنسا الجزائر، التي كانت آنذاك دولة ذات سيادة وفرنسا أكثر من 60 معاهدة واتفاقية معها، بدأ الاستعمار بعملية طويلة المدى وفريدة في الاستعمار. وفي 1834 أصبحت الجزائر رسميا تحت سيطرة الوالي العام المعين من وزير الدفاع الفرنسي، ولتعزيز قوتها وتواجدها في الجزائر، شجعت فرنسا هجرة مئات من الآلاف من المستوطنين الذين لهم سوابق عدلية للاستيطان في الجزائر ومنحهم قروض وتسهيلات وحراسة الجيش خوفا عليهم من الجزائريين وزوجوهم بنات الشارع من فرنسا الخ . وإلى حد ما وبسبب التوغل وتأثير هؤلاء

المستوطنين، فإن الاحتلال الفرنسي للجزائر كان ممزقا ومشتتا للمجتمع والثقافة أكثر منه مشروعا استعماريا في العالم العربي (11).

بدأ المستوطنون الأوائل في تنظيم الجزائر على أساس احتياجات فرنسا والسوق الدولية، وظل الفرنسيون متمسكون دائما أن الجزائر هي جزء لا يتجزأ من وطنهم وليست مجرد ملكية من ممتلكات امبراطوريتهم. وسرعان ما شرع المستوطنون الفرنسيون على نطاق أوسع في الاستحواذ على الأراضي الزراعية في الجزائر لتمكين أهدافهم الاستعمارية، وقاموا بالاستيلاء على الأملاك العمومية عشية الاحتلال 1830، وعلى جميع الأراضي غير المسجلة قانونيا في 1833 وأراضي القبائل الثائرة في 1839، وأراضي الجمعيات الدينية في 1843 والأراضي الحرجية في 1851 والأراضي غير المستغلة فلاحيا والتي لم تستعمل كمرعى في 1861 وأراضي العشيرة والأراضي المشتركة في السبعينيات، فأقام المستوطنون الفرنسيون إرثا إقطاعيا على الكثير من هذه الأراضي، وحولوا الجزائريين من ملاكين إلى مستخدمين في أراضيهم ولإضافة الإهانة إلى الضيم فإن هذه

الأراضي استعمل معظمها في زيادة غرس شجرة الكرمة لإنتاج النبيذ التي أغاضت المسلمين الجزائريين ، الذين يحرم دينهم استعمالها⁽¹²⁾. هناك مظهر آخر مهم في السياسة الفرنسية بالجزائر إنه مظهر الثقافة ، فعلية الإدماج ، هي الهدف المعلن لجميع المسؤولين السياسيين الفرنسيين المتعاقبين، والقصد منها أيضا إقامة جهاز حكومي استعماري جد قوي والقضاء على الشخصية الجزائرية الأصلية وذلك بربطها بالأنماط الفرنسية، وعلى أي حال، فإن المستوطنين فصلوا أنفسهم عن المسلمين الجزائريين وأقاموا نظاما يتمتعون فيه بكامل الحرية من حيث الفعل ومسايرة مصالحهم الخاصة بهم، وقسموا الجزائر إلى ثلاث مناطق: مدنية، مختلطة وعربية. ويعيش المستوطنون في المنطقة المدنية في الشمال ووضعوا العرب في منطقة تحت الحكم العسكري. وشكل هذا عالما مستقطبا و«مانويا» الذي وصفه فرانز فانون ، بأنه اتصف بالاستغلال والهيمنة والقمع⁽¹³⁾.

وفي إطار عملية الإدماج هذه، فإن الفرنسيين عملوا على تدمير القاعدة الثقافية الجزائرية وزرع الثقافة الفرنسية بدلها. وهذه

السياسة على أي حال ، تمت فقط من أجل إطالة الاستدمارية،
وليس استدامتها.⁽¹⁴⁾

لم يدمر النظام الاستعماري من قبل الجزائريين إلا بعد فترة طويلة من الاستغلال، فقد عرفت الجزائر سلسلة من الثورات خلال الفترات السابقة، قبل الثورة ضد التواجد الفرنسي وذلك بدءا من 1830 إلى 1954. في الواقع اندلعت الثورة ، حسب الإجماع الوطني، في 8 ماي 1945 ، وكانت من حاصل مرحلة دينية جديدة وتطور سياسي، وترق للوطنية الإسلامية الجزائرية. ويمكن أن ينظر إلى الثورة على أنها تحول ثنائي استراتيجي في نمو الوطنية، ومن ثم فإنه من المفيد فهم جذور هذا التحول الأساسي في المواقف الجزائرية تجاه كل من الفرنسيين وأنفسهم.

منذ بداية الحركة الوطنية الجزائرية في الثلاثينيات ، بعد الاحتلال، فإن الهويات البربرية، والعربية والإسلامية قد امتزجت ، إن الدين في الجزائر يمكن أن يكون الواسطة الوحيدة القابلة للتخيل للوطنية لأنه يوفر العلاقة الثقافية الأساسية بين البربر والعرب، أضف إلى ذلك، أن الإسلام في

العالم العربي يختلف دينيا عنه في المجتمع الغربي، فهو يسري في الحياة اليومية للفرد مع التزاماته الروحية، فهو جزء هام من مؤانسة. فهو يؤثر على حالة الفرد، فهو بهذا قوة شديدة التأثير للاستقرار الاجتماعي والثقافي⁽¹⁵⁾. هكذا أصبح الدين عنصرا أساسيا لإيديولوجية بومدين 65 - 1978 وعنصرا أوليا في الشخصية الجزائرية⁽¹⁶⁾. وهذا حسب وصف Henri Sanson فالإسلام ليس فقط كدين، لكن أيضا كإيديولوجية، يحكم روحيا بقانونه وعمليا بالثورة⁽¹⁷⁾. يعود ظهور الحركة الوطنية الجزائرية إلى بدايات الاحتلال عند ما قاد الأمير حركة المقاومة ضد المستوطنين الفرنسيين الأوائل⁽¹⁸⁾. فكل مؤرخ تابع هذه الحركة إلا ويلاحظ علامات التضامن والوحدة التي أدت إلى قاعدة أساسية للحركات الوطنية اللاحقة. يبدو أن الإسلام هو القوة الوحيدة المناهض ضد الامتصاص الكلي للبلاد من الفرنسيين، والذي أصبح القوة الدافعة في انبعاث الوعي الوطني⁽¹⁹⁾. اعتبرت هذه الحركة من قبل كل من الشعب الجزائري والحكومة الجزائرية كرمز للمقاومة الوطنية. ويجد المرء هذا التقدير أو الاحساس لحركة الأمير عبد القادر في جل المطبوعات الجزائرية الرسمية، التي تقدم هذه الحركة على أنها

جزء من نضال جزائري متواصل. وهذه المطبوعات من منشورات وزارة الاعلام الجزائرية في 1972 تخليدا لذاكرة عبد القادر والإسلام كقوتين رئيسيتين محركتين للوطنية الجزائرية. فهذه الحركة الدينية - الاجتماعية لم تمت بعد الاحتلال لأن هناك العديد من الانتفاضات ⁽²⁰⁾ بين 1847 و 1871 ، وآخرها انتفاضتي الأوراس 1916 و 8 ماي 1945 ، فالقادة الذين اتبعوا تقنيات الحرب لعبد القادر ، اعتبروه أفضل مثال لقائد مسلم في بلدهم ⁽²¹⁾.

وتلا بعد الحرب العالمية الأولى، أحزاب سياسية وتشكلت تنظيمات لدفع مسألة الهوية الوطنية الجزائرية في وسط بروز الوعي الوطني في العالم الثالث ⁽²²⁾. ساهمت هذه الحركات في بروز الوعي الوطني الجزائري وذلك لعدة أسباب التي لم تدفع بالقضية الجزائرية أكثر نحو الاستقلال. أولها ، أن معظم قادة هذه الحركات هم الجزائريون الذين تعلموا في فرنسا وأرادوا تنفيذ وترسيخ الأفكار الغربية، نموذج الوطنية الأوربية ، وآخرون طالبوا بإصلاحات سياسية أو تقرير المصير دون الانفصال عن فرنسا في وطن واحد يختلف اختلافا ثقافيا كليا

عن فرنسا، ثانيها، أن قادة الأحزاب السياسية الجزائرية كانوا متناقضين أو غير متوافقين في آرائهم ومقارباتهم. ثالثها، أن سياسة الحكومة الفرنسية تجاه هذه الحركات كانت هدامة وبشكل متطرف، وهذا راجع إلى رفض الفرنسيين فكرة استقلال الجزائر. أخيرا، أن هذه الحركات لم تصل إلى القاعدة الشعبية في الجزائر، التي كانت تتمثل في المزارعين، ثم إن قادة هذه الحركات أقاموا مقراتهم في فرنسا، والتي أبعدتهم وفصلتهم عن الوقائع الجزائرية، واتصالها بالفرنسيين، فالحزب الشيوعي الجزائري، مثلا، فشل في تطوير السياسة التي تمكنه من قيادة الشعب الجزائري نحو رغبته في الانفصال عن فرنسا، فالحزب الشيوعي الجزائري تأسس في الجزائر عام 1935 كفرع للحزب الشيوعي الفرنسي PCF فقد انتقد الشيوعيون العرب رفقاءهم في الجزائر لأنهم غير قادرين على القيام بالتعاون بين كل الشيوعيين العرب من أجل تحقيق الوحدة ضد الحركة الشيوعية العالمية. وهو ما شكل عائقا للشيوعيين الفرنسيين الذين أجبروا في الواقع على تأسيس حزب شيوعي جزائري في الجزائر، على أن يكون تابعا للحزب الشيوعي الفرنسي، وهو ما أدى إلى فصل إمكانية أي انسياق

للشيوعيين الجزائريين نحو معسكر الشيوعيين العرب، وأدت هذه السياسات إلى إقامة حزب ضعيف جدا ولا يعتمد عليه في الجزائر⁽²³⁾. أضف إلى ذلك، أن الشيوعيين لم يعاملوا الجزائر كبلد منفصل عن فرنسا فهم يسيئون الظن بالإسلام ويعارضون حرب الجزائر ويقوا منعزلين عن الحركة الوطنية الجزائرية⁽²⁴⁾.

وكما رأينا أعلاه، فإن الشيوعيين ووطنيون جزائريون علمانيون فشلوا في التعامل مع الحقائق الجزائرية وعملوا على تقريب الجزائر من فرنسا والثقافة الفرنسية.

هناك منظمة واحدة مهمة في الجزائر، التي فهمت الوضعية الجزائرية واستغلت على أي حال فرصة النظام الاستعماري لإيجاد محيط ملائم للنضال الثوري، وهي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فقد أحيا العلماء الوطنية الجزائرية وتعاملوا مباشرة مع الجماهير التي أعطتهم قوة البقاء ومناهضة السياسات الفرنسية، إذ أضحت الحركة العمود الفقري للوطنية الجزائرية، استمر العلماء في توجيه وبعث الطمأنينة في نفوس الجماهير إلى غاية اندلاع الثورة واستردت الجزائر استقلالها المغتصب، ومن أجل فهم الدور العصيب للحركة

الإصلاحية الإسلامية في تشكل الوطنية بالجزائر فإنه من الضروري دراسة التطورات السياسية خلال فترة ما بين 45 - 1954.

أنه ظهرت مرحلة جديدة للوطنية الجزائرية بعد الحرب العالمية الثانية، والصفة المميزة والغالبة الاستبعاد الكلي لأي أمل في التعاون بين المسلمين الجزائريين والفرنسيين. وأحد أسباب هذا الانقطاع هو الوحشية الفرنسية في سطيف وقالة وخرائط وغيرها من المدن والقرى والمدامر⁽²⁵⁾. في 8 ماي 1945، في الوقت الذي كان الجزائريون يحتفلون فيه بيوم النصر على النازية ويدافعون عن فرنسا في عقر دارها في مظاهرات سلمية مطالبين بالاستقلال ورد الجيش الفرنسي بالقمع والنار وكانت الحصيلة الوحشية لفرنسا الديمقراطية أكثر من 45.000 قتيل جزائري و 103 أوربي، فشتان بين الرقمين. ونتيجة لهذه المجازر البشعة والمرتكبة في حق أبرياء الجزائر، زاد الوعي أكثر وسط المسلمين الجزائريين ونادوا بحرب ضد المستعمرين الفرنسيين، وكانت هذه هي بداية لثورة 1954، وهو ما أدى أن ينظم أغلبية الجزائريين إلى العلماء، الذين استمرت خطبهم في المساجد ضد

فرنسا وأصبحت هذه الخطب مقبولة ومفضلة عندهم، والمحتوى الرئيسي لخطب العلماء كانت تدور حول الموقف الإسلامي تجاه الحيف والقسوة. استعمل العلماء مجازر سطيف لخلق العداوة الدفينة والبغضاء تجاه الفرنسيين وذكروا الجزائريين أنه ليس لهم إلا دينهم الذي يربطهم معا ويرقي ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية والروحية⁽²⁶⁾. أدخلت الحكومة الفرنسية سنة 1947 تشريعا جديدا القصد منه الحفاظ على الوضع الراهن، اقترح قانون 1947 تشكيل هيئتين انتخابيتين في الجزائر، نظريا، التمثيل الأكبر للمسلمين في الوضعية السياسية الحالية بالجزائر، فهذا التشريع، في الواقع لم يطبق تماما لأن المرشحين الجزائريين المؤيدين للحكم الفرنسي فقط هم الذين انتخبوا في المجلس ، ففساد هذا القانون الجديد هو الذي أدى بالجزائريين، خاصة الوطنيين المتعلمين أن يفقدوا الثقة في النظام السياسي القائم وفي فعالية العمل القانوني. وأنه ابتداء من عام 1947 إلى غاية اندلاع الثورة، فإن معظم الوطنيين الجزائريين شرعوا في البحث عن استراتيجيات أخرى واقتنعوا أن الطرق السرية المستعملة من قبل العلماء هي أفضل الوسائل لتحقيق الاستقلال. ومن بين هؤلاء الوطنيين الذين لم يتفقوا مع

النظام الفرنسي بعد محاولات عديدة للعمل ضمنه هو فرحات عباس، ذلك أنه ثار مع بداية افتتاح المجلس الجزائري في أفريل 1948 للاحتجاج على إجراءات التصويت وإلقاء القبض على العديد من المترشحين مما أدى إلى انسحابه من المجلس، والذي اعتبره البعض كآخر حظ للفرنسيين لتسوية خلافاتهم مع الشعب الجزائري⁽²⁷⁾.

أدى الفشل السياسي للوطنيين في النهاية إلى ظهور استراتيجية السرية المدعومة من جمعية العلماء، وأنه في ديسمبر 1946، تشكل تنظيم جديد ، أطلق عليه اسم « المنظمة الخاصة » ظهرت إلى الوجود وتأسست من شباب نشطين يؤمنون بشدة بالعمل العسكري، وتكون العمود الفقري للمنظمة الخاصة من الشباب المسلم الجزائري الذين تأثروا بنداء العلماء للجهاد ضد الفرنسيين ، ووفقا ل Zagoria فإن النسبة العالية من نمو السكان بين الحريين جعل من الشعب الجزائري شعب شباب خلال هذه الفترة، ويبدو أثناء عشية الحرب العالمية الثانية أن الهرم السكاني للجزائريين دون العشرين من العمر يمثلون نصف سكان البلاد⁽²⁸⁾. فهؤلاء الشباب هم أرض خصبة التي

مكنت العلماء من العمل لإيجاد وطنية إسلامية متجددة .
'فالمنظمة الخاصة' كانت خارج القانون بالنسبة للفرنسيين في
1950 وفي سنة 1954 تحولت إلى ما سمي باسم : (اللجنة الثورية
للوحدة والعمل - CRUA) بقيادة تسعة أشخاص شباب الذين
كانوا يديرون ويشرفون على معظم النشاطات والعصيان المسلح
في بدايات الثورة⁽²⁹⁾. وعشية اندلاع الثورة تحولت اللجنة الثورية
للوحدة والعمل إلى (جبهة التحرير الوطني - FLN) و (جيش
التحرير الوطني - ALN) فتأثير العلماء على هذه التطورات
واضح وذلك بوجود تنظيمات سرية واستراتيجية استعمال العمل
العسكري قبل السياسي، فجمعية العلماء لم تدعم العمل
العسكري علانية بل ألحت عليه بطريقة غير مباشرة . فالدليل
المباشر لارتباط العلماء بالنضال الثوري وارد في تقرير مجلة :

Life Magazine Foreign News, Editor Gene Farmer, The
Leaders Behind Algeria's Rebellion.

(قادة وراء تمرد الجزائر) وهذا عند التقاء الصحفي ببعض
الأعضاء التسعة بالقاهرة والذين انتقلوا إلى القاهرة عام 1956،
وأعلن هذا الصحفي عن الأسماء الذين التقى بهم وهم: محمد
خيضر، د/محمد الأمين الدباغين، فرحات عباس، د/ أحمد

فرنسيس، أحمد بودة وعبد الرحمن كيوان. وأعلن فارمر، أن الثورة ليس لها قائد واحد أو مجموعة ، فكل الجزائريين يقاتلون من أجل استقلالهم، فاستعمل هؤلاء القادة مكاتب جمعية العلماء بالقاهرة كمراكزهم القيادية، أين التقى بهم هذا الصحفي في شارع شريف رقم 36 الدور 7 شقة 51. فعلا أصبحت جمعية العلماء الملجأ الرئيسي لجميع الوطنيين بالجزائر الذين استعملوا مكاتبهم في الخارج واستفادوا من اتصالاتهم مع الزعماء الآخرين في المشرق العربي. أضف إلى ذلك، أن الصحفي فارمر وصف الثورة الجزائرية (كحرب مقدسة) بحيث كان للثوار علم يظهر فيه سيف(معقوق وحيد الحد) وعليه اللون الأخضر الذي يرمز للإسلام من الخلف⁽³⁰⁾. فهذا العلم يشبه علم الحركات الأصولية الأخرى في العالم العربي، مثل الحركة الوهابية⁽³¹⁾. الذين لهم تأثير معتبر وقوي على نشاطات جمعية العلماء⁽³²⁾. فالطابع الديني على الثورة كان بينا في اختيار كلمة (مجاهدين) لوصف المقا تلين في جبهة التحرير الوطني.

فالحركة الإصلاحية الجزائرية تمتد جذورها من حركة العالم الإسلامي والمدرسة السلفية للفكر الإسلامي تلح في الأساس

على العودة إلى المبادئ الطاهرة وأخلاق صحابة الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام، ورفضت الأشكال المتنوعة للبدعة، أو الابتداع، خاصة التقليد الغربي، وكانت هذه الحركة ذات صلة بالمصلحين أمثال جمال الدين الأفغاني (1838- 1897) والشيخ محمد عبده المصري (1849- 1905)، والشيخ السوري رشيد رضا (1865- 1935)، فكان هؤلاء المصلحون السلفيون ملتزمين بشكل صارم بفكرة الجامعة الإسلامية -الوحدة الأساسية لجميع المسلمين في العالم. وظنوا أن المسلمين هم متخلفون، ليس بسبب الإسلام، ولكن بسبب تخليهم عن مصادر قوتهم الفكرية والروحية. فأكدوا على التقوى الديني وطهارة الإيمان كشرط مسبق وضروري للتضامن الإسلامي وخلق أمة قوية. فدعاة المسلمين إلى الاتحاد يرون الإسلام كوثاق أسمى بين كافة المسلمين، كما يدعمون القوميات المحلية ما داموا موافقين ضمن إطار هدفهم الأسمى، الوحدة الشاملة للعالم الإسلامي⁽³³⁾. فالنزعة الإصلاحية الإسلامية اعتبرت أنها واحدة من التطورات الرئيسية في الفكر الثقافي الإسلامي والسياسي منذ القرن التاسع عشر فالإصلاح الجزائري كان جزءاً من هذه الحركة الكبرى⁽³⁵⁾.

فمعظم رجال الدين الجزائريين الشباب الذين سافروا إلى مكة، والقاهرة، ودمشق اتصلوا بقيادة السلفية وتأثروا بأفكارهم.

يعتبر علي مراد أحد أبرز المؤرخين لهذه الحركة منذ البداية الفعلية سنة 1903، عند زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر سنة 1905 الذي أوجد قنوات الاتصال بين الجزائريين والعلماء في المشرق العربي⁽³⁶⁾. فالطلبة الجزائريون الدارسون في المشرق العربي عادوا للوطن بنزعة قوية نحو كل من الحركتين السلفية والوهابية وقرروا إحياء دينهم، وبمساعدهم بدأ عبد الحميد بن باديس في العشرينات الشروع في الإصلاح بالجزائر. شرع بن باديس والطيب العقبي في تكوين طلبة آخرين ليكونوا رواداً، وفي سنة 1931 تشكلت رسمياً جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة بن باديس⁽³⁷⁾. دخلت جمعية العلماء مرحلة جديدة في الأربعينيات والخمسينيات في ظل ظروف جديدة ومسؤول جديد، البشير الإبراهيمي (1889-1965) فالإبراهيمي درس في مكة وفي سوريا، حيث عاش وشارك في الثورة العربية ضد الأتراك في 1916، وعند وفاة بن باديس في 16

أفريل 1940، سلمت قيادة الحركة عند ما كان بعيدا عن الوطن، وحال عودته في 1945، استمر في العمل الإصلاحية وأصبح الشخصية الرائدة في الحركة. وظل الهدف الرئيسي لجمعية العلماء ، كما عبر عنه في الثلاثينيات بافيا، والذي لا يعني التفسير الأساسي للإسلام ، بل إعادة الإصلاح إلى مبادئ الإسلام الأولى، الاخلاقية، والدينية والاجتماعية في بداية الإسلام بالجزائر، ورقى العلماء برنامجا يهدف إلى تطهير الإسلام والآفات الاجتماعية القائمة مثل شرب الكحول والقمار والبطالة والجهل وجميع الأشياء الأخرى التي منعتها الشريعة الإسلامية.

وحسب محمد دبوز، فإن اليقظة الجزائرية هذه كان سببها الرئيسي(الأعمال الفرنسية مثل التهجم القاسي على الإسلام واللغة العربية، وغلق المدارس الدينية، ومحاولة القضاء على الهوية الإسلامية الجزائرية عن طريق إجبار الجزائريين أن يصبحوا مواطنين فرنسيين، وحتى المواطنة لا حق لهم فيها إلا من قدم خدمات لفرنسا على حساب إخوته ووطنه. وفوق هذا وذاك هدم معظم المساجد ، وخاصة بالعاصمة، وهو ما أدى

بالجزائريين المسلمين أن يقتنعوا بأن الفرنسيين ما هم إلا صليبيين حقيقيين وبلون آخر، وأعداء الإسلام⁽³⁸⁾.

إذن، فالعلماء كمؤسسة قائمة ومنظمة، وجدت أنه من الضروري أن تحارب وتقف ضد الفرنسيين على الساحتين الثقافية والدينية لإحياء الشخصية الجزائرية كوسيلة لاستعادة السياسة. وأكد العلماء على الطابع غير السياسي لحركتهم قصد التهرب من العمل العدائي الفرنسي الذي قضى على الأحزاب السياسية الأخرى بشكل علني. وبهذه الطريقة يؤمنون عدم المتابعة، فقد باشرُوا في تحقيق هدفين : الأول كان توا، والآخر طالَت مدته. الأول كان الارتباط مع كل القوى الفكرية في ظل شعار الإصلاح الاجتماعي، والثاني كان فصل الجزائر عن فرنسا تحت العلم الوطني (39).

والسبب الحقيقي وراء هذين النظامين، مهما يكن، كان من أجل إحياء وتقوية الإسلام بالجزائر، وهو عمل لا يمكن القيام به في ظل قوة أجنبية غريبة عن الإسلام وثقافته. كانت الحركة الإصلاحية الجزائرية مصممة على النضال على عدة جبهات في وقت واحد لتحقيق أهدافها. أول هذه الأهداف أن العلماء قاوموا

السياسات الفرنسية الداعية إلى الاندماج والتجنس من أجل أن يحول دون تحول الشعب الجزائري تجاه الجانب الفرنسي.

حاولوا القضاء على سياسة ما وراء هذا الحافز الذي كان يهدف أن يطبع القوى السياسية الممكنة للإسلام، فهذه الجهود لمقاومة الاندماج كانت تتمثل في إقامة المدارس الدينية للجمعية ، والمنتديات الثقافية ، والنوادي الأدبية، وأقسام الدراسات الإسلامية في المساجد التي بقيت غير مهدمة أو مرخصة، فأقام العلماء سلسلة من المدارس الابتدائية العربية عبر كامل التراب الجزائري والتي يدرس فيها الدين، واللغة العربية، والثقافة، والتاريخ وعلم الفلك عند العرب، والحساب واستنادا إلى جريدة فرنسية، فإن الجمعية كانت تشرف على أكثر من 58 مدرسة تضم ما يربو عن 10.739 طالب⁽⁴⁰⁾. وتقدر مصادر أخرى عدد التلاميذ الذين كانوا يتعلمون في مدارس الجمعية بأنهم يفوقون 50.000 في 1951⁽⁴¹⁾. ويبدأ الأطفال يومهم في مثل هذه المدارس ينشدون (الإسلام ديني، والعربية لغتي، والجزائر وطني)⁽⁴²⁾. فالمساعي التربوية للعلماء لم تقتصر فقط على المستويات الابتدائية ، ذلك أنه في 1948 تم تأسيس معهد بن باديس في

قسنطينة لتعليم الشباب الجزائري وإعدادهم لمواصلة دراساتهم العليا في جامعتي الزيتونة ، بتونس ، والأزهر ، بالقاهرة. جلب هذا المعهد العديد من الشباب المتعطشين للتعليم، الشيء الذي دفع بالجمعية أن تطلب الحكومة الفرنسية بالسماح لها بفتح الجامع الكبير بقسنطينة ليمتص كل الطلبة القادمين إليه.⁽⁴³⁾ أضف إلى ذلك، أن العلماء ردوا على السياسة الفرنسية المتعلقة بالتجنس بإصدار رأي في الفتوى والقائمة على الشريعة الإسلامية باعتراض المسلمين عن التخلي عن هويتهم الإسلامية مقابل المواطنة الفرنسية، وجاء في الفتوى أن أولئك الذين تخلوا عن هويتهم الإسلامية يعتبرون كفارا ويجب نبذهم من الجماعة الإسلامية وذلك بسبب عاملها الديني، وكان لهذه الفتوى تأثير على سياسة فرنسا للتجنس⁽⁴⁴⁾.

والجبهة الهامة الأخرى التي ناضل العلماء الفرنسيون، كانت قضية المرابطين، فكلمة مرابط، كلمة عربية للأفراد الذين يكرسون حياتهم في الانعزال الديني. أي أنها تشير إلى الزهد في الحياة والذين يعتقد أنهم يرثون البركة والذين يشكلون نسب ديني وراثي: فالمرابطون في الجزائر مؤلفون من القيادة الدينية

المهيمنة في المناطق الريفية. ومع الاحتلال الفرنسي للجزائر، بدأ المرابطون يفقدون قوتهم وليس منزلتهم وحافظت السلطات الاستعمارية على امتيازاتهم، والتي اعتبرتهم وسطاء مفيدتين بين الإدارة الاستعمارية وأهالي سكان الريف، فهذه الموافقة الرسمية على امتيازاتهم أدى بالعديد من المرابطين إلى أن يسيروا في خدمة الفرنسيين مقابل الحفاظ على مكانتهم في المجتمع الجزائري، وبالنسبة للعلماء فإن الزوايا كانت شكلا من أشكال البدعة التي لم تكن معروفة⁽⁴⁵⁾. في بداية المجتمع الإسلامي، و يعتقد أن لها صلة بالمرابطين، ويعتبر العلماء وقارهم شرك، وهو موقف محرم في الإسلام كإثم ضد التوحيد (وحدانية الله) وسعى العلماء أيضا إلى التخلص من المرابطين لأنهم يشكلون عائقا للمصلحين عن الوصول إلى جماهير الريف. فمريدي المرابطين يتركزون بشكل مكثف في الريف والعلماء يرغبون في تحرير سكان الريف من النفوذ الذي يعتبرونه متحجرا ومتخلفا، فالجماهير حسب العلماء مسحورة بكلام تافه وممارسات باطنية فهذا يتعارض مع آمال العلماء لجعل الجزائريين مدركين وببصيرة ووعي لوضعهم السياسي، علاوة

على ذلك، فإن المصلحين كانوا غاضبين على المرابطين لخضوعهم للسلطات الفرنسية، ونتيجة لجهود العلماء فإن معظم جماعات المرابطين تشنت وأن الرأي العام الجزائري تحول ضد كل من المرابطين والتصوف⁽⁴⁶⁾. إضافة إلى محاولة إبعاد العراقيين التقليديين لإحياء الهوية الإسلامية الجزائرية المعاصرة. استعمل العلماء استراتيجية أخرى لتحقيق أهدافهم. فكتابة التاريخ الوطني استعمل لإحياء تراث الجزائر وموقعها في الحضارة الإسلامية، فالعلماء أظهروا تاريخيا ما يمجّد المساهمة الجزائرية في الإسلام ويقلل من صورة الغرب، فرؤية التاريخ تعلم الجزائريين أن أمتهم شبيهة بشكلها المعاصر التي كانت موجودة عليها في الماضي وأن لها من المؤسسات الدينية والثقافية الضرورية لهويتها مثل دولة معاصرة اليوم. والغرض الآخر من هذا التأكيد حول التاريخ هو حل مسألة تنازع العرب والبربر المزعومة.

سعى المؤرخون المصلحون إلى أن يبرهنوا من خلال تحقيق تاريخي شامل أن البربر كانوا قريبين من العرب، وفوق كل ذلك، هم مسلمون وإخوة منذ قدوم الإسلام إلى الجزائر، والأهم في ذلك،

فإن النظرة الإصلاحية للتاريخ استخدمت للتأكيد على التناقض الكامل والتنافر بين الشرق والغرب، أي يمكن القول ، بين المسلمين والمسيحيين.

فالنظرة الإصلاحية هذه للتاريخ نشرت في العديد من الكتب المنشورة من الجمعية. وأحد هذه الأعمال المنشورة (تاريخ الجزائر العربي العام) من تأليف المرحوم عبد الرحمن الجيلالي، إن الهدف الأساسي لهذا الكتاب كان من أجل (استيقاظ الشباب الجزائري المسلم للشعور بالاعتزاز بوطنه وتمجيد تاريخه الساطع وأن يحافظ على تقواه للإسلام).⁽⁴⁷⁾.

وهذا مبارك الميلي، مصلح ومؤرخ آخر والذي نشر مجلدين حول تاريخ الجزائر في 1928 و 1932. لقد أثبتت جميع هذه المحاولات أن الجزائر كانت مؤهلة تاريخيا بأن تكون أمة رغم الاحتلال الاستعماري لأرضها، فقد وجدت هذه الكتب ترحابا واسعا في المجتمع الجزائري، وبالتأكيد على التراث الثقافي والتاريخي للشعب الجزائري، فإن العلماء سعوا لتحدي النظرة الفرنسية أن الجزائر لم تكن أبدا أمة. أيضا، قاوم العلماء تصديق الفرنسيين والشيوعيين الجزائريين، المعبر عنه من قبل

Maurice Thorez (أن الجزائر لم تكن سوى أمة في طور التشكل)⁽⁴⁸⁾. وهذا، وبالمقابل، أضاف خطوة جديدة لسلم النجاح للحركة الإصلاحية.

لم يكن إنجاز أهداف العلماء فقط إلا عن طريق مغامراتهم في التعليم والأدب، بل أيضا بواسطة بعض الأشخاص المهمين في الجمعية الذين تكلموا مباشرة مع الشعب وجعلوا إيديولوجية الإسلام مفهومة لأغلبية الجماهير، فالشيخ البشير الإبراهيمي، رئيس جمعية العلماء كان واحدا من هؤلاء الذين اشتهروا بالتبسيط الشعبي في أحاديثهم حول الإصلاح. أصبح الإبراهيمي في 1945، زعيم الحركة الإصلاحية، وحققت جمعية العلماء زخما جديدا، فمساهمة الإبراهيمي في الحركة الإصلاحية، وإيقاظ الجزائريين كانت واضحة في محاضراته، ومقالاته، وأقسامه، وكتبه، ورحلاته حول العالم الإسلامي. فقلمه كان مثمرا في الحين، وقويا، ومتقلبا. ناقش قضايا عديدة ومتنوعة سياسية واقتصادية ودينية واجتماعية وثقافية ضمن محيطهم الفلسفي والديني. كتب العديد من المقالات في الجريدة الرسمية

للعلماء(البصائر) والتي سعى فيها إلى عرض شرور الاستعمارية الفرنسية والقوة المحتملة للإسلام في الجزائر.

وعن طريق قراءة مقالاته في البصائر خلال الفترة الممتدة من 1947 إلى 1952 ، يمكن للمرء أن يرى اختلافات في وجهات النظر للإبراهيمي التي أصبحت راديكالية أكثر وثرية مع الماضي المنصرم، عكس أسلافه، حافظ على الأدوات السياسية ، خاصة أعلام المجلس الجزائري للوضعية الدينية الإسلامية، فكان الإبراهيمي يرسل تقارير بشكل منتظم للمجلس الجزائري يشرح فيها مظالم وشكاوي المسلمين على أعضاء المجلس الجزائري ويطالب بالحلول⁽⁴⁹⁾.

فالانحراف من دين صاف إلى تورط سياسي كان ضروريا في موقف العدوان الفرنسي تجاه الهوية والثقافة الجزائرية. أضف إلى ذلك، أن الإبراهيمي كان متأثرا بالراديكالية العربية التي بدأت تشكل السياسة العربية في العشرينيات، في الوقت الذي كان فيه في المشرق العربي. فهذا التأثير واضح في كتاباته، التي تتضمن العديد من المقالات حول القضية الفلسطينية، والثورة المصرية⁽⁵⁰⁾.

هاجم الإبراهيمي السياسة الفرنسية بكل صراحة وفضح عدوانيتهم نحو الإسلام والمسلمين الجزائريين ، وناقش معظم مظاهر المجتمع الجزائري التي أصابته جراء السياسة الفرنسية، مثل تدخلهم في عملية الحج إلى مكة المكرمة، والجزائريون الراغبون في الذهاب إلى مكة عليهم أن يثبتوا أنهم غير متبوعين بإدانة إجرامية سابقا. وفي موازاة هذا، فإن السلطات الفرنسية تطلب في الوقت ذاته من كل شخص يرغب في القيام بالحج أن يقدم طلبه عن طريق مؤسساتها الإدارية، وهو ما يجعل ذلك صعبا للجزائريين الحصول على أوراقهم في الوقت المناسب للذهاب إلى الحج، وهي مرة واحدة في السنة، وأن تحديد السلطات الفرنسية عدد النساء إلى مكة هي طريقة أخرى لمنع المسلمين والمسلمات من الذهاب إلى البقاع المقدسة في المشرق العربي قصد إتمام شعائهم الدينية.

اتهم الإبراهيمي الحكومة الفرنسية في محاولتها هذه إسقاط الطابع الإسلامي على المجتمع الجزائري (51). ولهذا السبب، طالب بقوة فصل الدين عن الدولة، وهي سياسة فرنسية وعدت بها ولكنها لم تنفذها إطلاقا، فاستعمل الإبراهيمي فكرة

فصل الدين عن الدولة كوسيلة لمنع الفرنسيين من مراقبة المؤسسات الدينية الجزائرية ، كانت هذه الفكرة تعني أيضا إغراء السلطات الفرنسية بالتفكير أن العلماء غير مهتمين في السياسة الوطنية، ومن ثم يتركون لحالهم، وكان قصد الإبراهيمي ومن معه من أعضاء الجمعية أن يراقبوا ويسيروا المؤسسات الدينية الإسلامية من غير تدخل من الحكومة الفرنسية، وأثبت هذا أن ذلك غير ممكن بسبب يقظة الفرنسيين أن الإسلام هو خطر أيضا أن يترك حرا في أيدي مسؤوليه (52).

تتضمن الأهداف الرئيسية للجمعية كما صاغها الإبراهيمي:

- 1 - احياء الدين الإسلامي وتاريخه.
- 2 - استعادة المساجد وكل الأوقاف العمومية للجمعية.
- 3 - استقلالية القضاء.
- 4 - الحرية التامة للتعليم العربي.
- 5 - حفظ الهوية الوطنية الجزائرية.

6 - احياء اللغة العربية والأدب.

7 - تعزيز العلاقات مع العرب الآخرين والمسلمين (53).

فهذه الأهداف ثورية وواضحة وتشكل تحد للسلطات الفرنسية، ويلاحظ هنا أن طلبا واحدا فقط خاص بالوقف العمومي، فالحكومة الفرنسية سبق لها وأن صادرت الوقف العمومي الذي كانت معظم المؤسسات الدينية في الجزائر تعتمد عليه ماليا. اعتبرت هذه المسألة الدينية، ظاهريا، أحد أسباب الثورة حسب جريدة المجاهد ، الجريدة الرسمية لجهة التحرير الوطني، وطبقا للمجاهد ، فإن استعادة أوقاف الحبس المأخوذة من الإدارة الاستعمارية أصبحت أحد الأهداف الرئيسية للثورة الجزائرية، والتي ستسمح للشعب باختيار مؤسساته الخاصة بعد تحرير التراب الوطني(54).

اعتقد الإبراهيمي أن المسلمين بإمكانهم تحطيم أغلال الاستعمار من خلال انبعاث الثقة وتقوية الإسلام كشكل من أشكال الاجماع ومصدر إحساس متجدد للهوية. أعلم قراءه بمظالم الاستعمار الفرنسي في مقالاته، وأشار، على سبيل المثال، أن (الاستعمار حيوان بشع، فالمساواة هي العدالة،

والاستقلال هو احترام الإنسانية وتنفيذ شريعة الإله.) و جمعية العلماء وانطلاقا منها فإنها حزب الله، التي تسعى إلى تحرير المسلمين من القمع الاستعماري، والاستعمار الفرنسي شيطان، وبقينا فإن (الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا..) قرآن، سورة فاطر، الآية 6.

ركز الإبراهيمي على الشباب الجزائري، لأنه يعتقد أنهم أساس بذرة محتملة لتطوير الوطنية الإسلامية، وكتب قائلا: إن الإسلام لا يمكنه أن يكون واقعا معاشا للشباب الجزائري، إلا إذا اختفت هيمنة الاستعمار الفرنسي (56).

هناك موقف آخر مهم في كتابات الإبراهيمي، و هو تأكيده على القيم الأخلاقية، مثل جميع المصلحين، فالإبراهيمي يؤكد على أهمية العمل، والوحدة، والثقة في إقامة جماعة مستقلة، و هاجم الإبراهيمي، أيضا التقاليد التي يمكن أن تعكر التحام المجتمع المسلم، مثل التهور في نفقات الزواج أو مناسبات خاصة، والطلاق بدون أسباب شرعية أو قانونية، والمقامرة. فهذه الجهود من أجل ترقية دينية وأخلاقية وانبعثت ثقافي، لها جميعها دور هام في تكوين هذه القوى الأخلاقية التي كانت

دعما مفيدا في أحداث الثورة الجزائرية في عام 1954، وأدت البلاد إلى الاستقلال (57). ومهما كان الأمر فإن إبراهيمي يعد أحد الشخصيات التي مثلت الحركة الإصلاحية ، وعمله يؤكد نجاحها، عرف كيف يؤثر على الجماهير، وكان بإمكانه خلق وعي وطني قائم على الإسلام، سواء كان ذلك بمقالاته المكتوبة أو بإقامة مدارس قرآنية، فالإبراهيمي نجح في إصلاح المواقف الجزائرية وأعد الجماهير للنضال القادم، اكتسب الإبراهيمي احتراماً جداً مقابل عمله واعتبر بطلا وطنيا من قبل حكومة جبهة التحرير الوطني للجزائر المستقلة، رغم ما تعرض له بعد استرجاع السيادة الوطنية ، وهو ليس بغريب على من يعرف مسيرة الحركة الوطنية.

وعند وفاته بالجزائر في شهر ماي 1965، حضر جنازته خلق عظيم، وفسر العديد من الأجانب موكب الجنازة كمظاهرة حجاب من العناصر المحافظة ضد سياسة المرحوم بن بلة (الاشتراكية) (58).

وإلى جانب برنامجها وجهود أعضائها، فإن أحد العوامل الكبرى في نجاح حركة العلماء هو تركيبة الجمعية.

فهذا أبو القاسم سعد الله، (المؤرخ الجزائري ، وأستاذي في السبعينات من القرن الماضي) قدم وثيقة جد هامة تتعلق بميثاق جمعية العلماء الجزائريين في سبتمبر 1954، وتبين هذه الوثيقة أن الجمعية منسقة تنظيميا، فكل طرف له مسؤولياته الخاصة به.

فالجمعية مقسمة إلى ست لجان، تتضمن المالية، والتوظيف، والطبع والنشر، والتعليم، والدعاية والعلاقات الخارجية، ولكل مجلس من هذه اللجان مدير، واثنان من المقررين، وستة أو سبعة أعضاء مع وظائف وواجبات محددة في التسيير (59).

فهذا النموذج من جهاز الإدارة مكن العلماء من العمل وتحقيق أهدافهم بنجاح تام، ويشير ميثاق الجمعية في 1954، إلى اهتمام الجمعية بالقضايا المحلية، وأن أحد القرارات التي خرج بها المؤتمر كان مطالبة اللجنة بإعداد تنظيم شباب الحركة وتزويدها ببرنامج تربوي، وأكثر من ذلك، قررت الجمعية في هذا اللقاء مساعدة أولئك المتضررين من زلزال مدينة الأصنام بتوفير الوقاية ومساعدة الضحايا (60).

فهذا يظهر كيف كانت مساهمات الجمعية للمجتمع وأكسبتهم احتراماً وقبولاً من الشعب، والأهم في ذلك كله، هو أن تقرير اللقاء للجمعية يظهر أن أحد مجالات حركة العلماء التي كان سريتها، وحسب محاضر الميثاق، فإن كل عضو عليه أن يؤدي اليمين مؤكداً أنه سيحفظ كل ما قيل داخل التجمع الخاص، إضافة إلى أن نقطة من النقاط الواردة في التقرير تقول إنه نظراً للظروف الحالية، فإن هذه القرارات يجب أن تبقى في السرية ولا يكشف عنها خارج دائرة هذا المجلس (61).

وليس واضحاً ما تعني كلمة: الظروف الحالية. فاللقاء تم انعقاده خلال فترة تحضير الكفاح الثوري، وبعد شهر من هذا الاجتماع اندلعت الثورة.

فإنجازات جمعية العلماء كانت هامة في المجال الثقافي والإصلاح الديني، وبشكل واسع وبسبب جهودهم، تطور الحس بوجود أمة وبلغة مشتركة يجمعان كل الجزائريين والجزائريات، كما نجح العلماء في إيجاد حس مشترك للهوية الجزائرية الذي كان واضحاً على امتداد الجزائر عند اندلاع

الثورة في 1954. وحسب مذكرة كتابة الدولة للخارجية الأمريكية في 12 سبتمبر 1952، فإن (العلماء والمعلمين المسلمين والشخصيات الدينية، يبدو أنهم قادة الجماهير) (62).

فعمل رجال الدين لم يكن محدودا في منطقة واحدة محددة، أو منطقتين فقط، أو من قاعدتهم في قسنطينة، بل أنهم كانوا قادرين على إيصال ونشر حركتهم حتى أنه ليس هناك مكان في الجزائر إلا والعلماء يؤسسون فيه تنظيمات بطريقة أو بأخرى (63).

ومن خلال طريقتهم الثقافية والدينية، فإن العلماء كان بإمكانهم نقل الامتعاض السلبي إلى مقاومة فاعلة.

ففكرة الجهاد هيأت الجزائريين لمواجهة طويلة جدا مع الفرنسيين، فتاريخ بداية الثورة تزامن مع الاحتفال الكاثوليكي بعيد جميع القديسين، الذي يحتفل باضطهاد شهداء المسيحيين الأوائل، فاختيار هذا التاريخ تم التداول فيه وكان يعني إظهار الطبيعة الإسلامية للثورة. وقد قدمت جريدة المجاهد، الناطقة باسم جيش وجبهة التحرير الوطني، العديد من المقالات كنموذج لأهداف إسلامية الحاثثة للجزائريين إلى

المعركة، فحالة أحمد زبانة، واحدة من الصور والنماذج المستعملة لتوضيح الدوافع الكامنة وراء الكفاح الجزائري ضد الفرنسيين، ففي رسالة لوالده في 1956، أكد زبانة أن (الموت من أجل الله و حياة خالدة، أن تموت لا شيء، لكنه واجب من أجل الوطن) (64). فهذا الموقف لا يمكن أن يكون بدون جهود العلماء لإيجاد محيط مفعم بالحيوية والنشاط لأجل مقاومة جزائرية (65).

وبحلول سنة 1962، وبعد افتكاك واسترداد السيادة الجزائرية، بدا جليا أن حركة العلماء قد أثرت على كل من السياسة الجزائرية والأنظمة الاجتماعية. فميثاق 1963، احتفظ بدور الإسلام كدين للدولة، ويجب أن يكون رئيس الدولة مسلما، وثبتت صفة الإسلام أيضا في استفتاء الميثاق الوطني لسنة 1976، في ظل قيادة هواري بومدين، فكان يسود جزائر ما بعد الحرب حالة صعبة وقاسية، وقد جرت محاولات عدة لاستبدال اللغة العربية بالفرنسية، وبقيت حالة المرأة الجزائرية تقرر رسميا طبقا للشريعة الإسلامية، ولازال الحائك يستعمل، ولا يسمح اختلاط المرأة بالرجال لمعظم الجزائريين (66).

ففي 1964، وجد الإسلاميون، دعماً من محمد خيضر، أحد قادة جبهة التحرير الوطني، حيث عقد لقاء في الجزائر العاصمة وقرر فيه البقاء والاحتفاظ بالمبادئ الإسلامية، وطالبوا بوقف البث الإذاعي الأجنبي، وأن تغلق المحلات التجارية والمغازات، وقت الصلاة، ويخصص التوظيف للمسلمين، ومن ثم فإن مبادئ الإسلام يجب تطبيقها بصفة عامة وبشكل صارم (67).

فالحكومة الجزائرية والنخبة الحاكمة أصبحتا ورثتين لثورة كانت شعبية تعد كقتال جهادي من المجاهدين، واستعملوا الإسلام كأسس لشرعيتهم ومصدر لسلطتهم، وأكثر من ذلك، فإن الحكومة حاولت أن تستعمل هذه الشرعية للتعبئة الاجتماعية والسياسية للسكان الجزائريين بعد الثورة (68). وعلى أي حال، فإن الحكومة قللت من ممارسة الإسلام إلى نوع من التضييق على النشاط الفردي ولا محل رسمي في النظام السياسي، فأقصاء العنصر الإسلامي من الجهاز السياسي أدى إلى اندماج نظام الدولة الوطنية، وفشل العلماء في إتمام خلق دولة إسلامية بالمعنى الكلي، فغياب سياسة العلماء بعد الاستقلال راجع أيضاً إلى طبيعة الحركات الإصلاحية التي برزت في

المشرق العربي والتي أفضت إلى إهمال العوامل السياسية في برامجها. ومن ناحية ثانية، فإن الحركة الإصلاحية الجزائرية لم تختف تماما من الساحة، ففي ديسمبر 1985، استدعى الرئيس الشاذلي بن جديد إلى مؤتمر استثنائي لجبهة التحرير الوطني قصد تعديل الميثاق الوطني بطريقة مرضية للإسلاميين في المجتمع الجزائري، وكانت نتيجة هذا المؤتمر إدراج بعض المراجع الأساسية إلى الإسلام في النقاط الأساسية للميثاق، فمحاولة الشاذلي تدل على استمرار قوة الإسلاميين ومصلحة الدولة في إبقاء الإسلام كمصدر لشرعيتها (69).

فالحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، كان بإمكانها من خلال الجهود الواسعة، أن تجعل ممارسة دين الإسلام كهدف وسلاح في نفس الوقت، فمعظم العلماء نالوا تعليما مستقلا عن فرنسا، والذي يعني بالنسبة لهم تجديد وتقوية الإسلام في قلوب الجزائريين.

هناك مساهمة أخرى هامة للمصلحين تتمثل في تجديد المحيط الاجتماعي الإسلامي، والذي كان صعبا للحزب الشيوعي الجزائري للقيام بأي انتهاك في المجتمع الجزائري، وهكذا

يمكن للمرء أن يشاهد الإصلاح الإسلامي الجزائري، وأنه أحد الأسباب في فشل الشيوعيين للقيام بأي مساهمة هامة في نوفمبر 1954.

هوامش

- 1 - محمد الطاهر عدواني، (حول المنهجية العلمية لكتابة تاريخ الثورة) مجلة التاريخ، رقم 12 - النصف الأول من سنة (1982)، ص 29-44.
- 2- See for example: Marnia Lazreg , The Emergence of Classes in Algeria, (Boulder, Colorado: Westview Press, 1976). Pp.57-86; Alf A. Heggoy, Insurgency and Counterinsurgency in Algeria (Bloomington: Indiana University Press, 1972); Abdel-Raouf Amro and Umar Amro, Ahmed Ben Bella: the Son of North Africa (Cairo: dar-al -qawmyya li tiba'a wa al-nashr, 1963).
- 3- Janet Zagoria, The Rise and Fall of the Movement of Messali Hadj in Algeria (Columbia University, Ph.D. Dissertation, 1973), p.146.
- 4- Joan Gillespie, Algeria : Rebellion and Revolution (London: Ernest Benn Limited, 1960), p.53.
- 5- Frantz Fanon, The Wretched of the Earth, translated by Constance Farrington (New York: Grove Press, Inc., 1982), p.94.
- 6- Irene L. Gendzier, Frantz Fanon; A Critical Study (New York: Grove Press, Inc., 1973), p.201.

- 7- Alistair Horne, A savage War of Peace, (New York: Peregrine Books, 1979), p.17.
- 8- EDWARD w. Said? Orientalism (New York: Pantheon Books, 1978), p. 300.
- 9- Edward W. Said, "Islam, Orientalism and the West" Time, April 16, 1979, p. 54.
- 10 -السني والشييعي والاختلاف في الولاية بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام.
- 11 -صلاح العقاد، الجزائر المعاصرة، القاهرة: (المعهد الدولي للدراسات العربية، 1964)، ص. 7- 20
- 12- Micheal C. Hudson, Arab Politics (New Haven : Yale University Press, 1977), p. 365.
- 13- Karen Farsoun, "State Capitalism in Algeria," Middle East Research and Information Project (MERIP) Reports, N°.35 (February, 1975), p. 3.
- 14- Fanon, The Wretched of the Earth, pp.38-40.
- 15- For more accounts of the French policies and brutality in Algeria, see محمد علي دبوز، النهضة الجزائرية والثورة المباركة. الجزائر، 1965، ج.1 ص 5 -31.
- 16 - Hudson, Arab Politics, p. 52.

17 - لطفى الخوري، الثورة في الثورة وبالثورة، (بيروت، دار القضايا، 1975)، ص 151 17

18- Henri Sanson, La cité Islamique en Algérie
(Paris :Edition du Centre National de la Recherche
Scientifique, 1983), p. 22.

19 - الأمير عبد القادر الجزائري (1807 - 1883) قائد المقاومة
الجزائرية من 1832 إلى 1847، ركز اهتماماته الدينية عند تهجيريه إلى
سورية ، أنظر علي نويهد، معجم أعلام الجزائر، موسوعة علماء
الجزائر، (بيروت: مؤسسة نويهد للنشر، 1980) ص 103 - 104.

20- Arslan Humbaraci , Algeria : A Revolution that
failed (London : Pall Mall Press, 1966) , p. 27.

21 - وزارة الاعلام الجزائرية، الثورة الجزائرية في ذكراها العاشرة،
1972. ص 9 - 19.

22- There were many rebellions during this period,
such as the Peasant Revolts in 1850s and the revolt of
Awlad Sidi Shykh in Southern Algeria in 1881. See
Belkacem Saadallah, The Rise of Algerian Nationalism:
1900-1930 (University of Minnesota PhD, Dissertation,
1965), pp.39-48.

23- Ammar Bouhouche, "The Origins of Political Algerian for Independence of Algeria," Arab Journal, Vol. II, N°. 4 (Fall 1965), pp.5-7.

24- Saadallah, The Rise of Algerian Nationalism, p.357.

25- Irwin M. Wall, " The French Communists and the Algerian War," Journal of Contemporary History, Vol.12, no. 3 (July 1977), p.524.

26- Setif, Kherratah, and Galma are cities in Eastern Algeria, Sétif is the largest and is half –way between Algiers and Constantine.

27- Jacques R. Goutor, Algeria and France (Muncie, Indiana: Ball State University Press, 1965), p.51.

28 - مصطفى الطلاس وبسام العسالي، الثورة الجزائرية (بيروت: دار الشورى ، 1982)، ص 70 - 71.

29-Gillespie, Algeria : Rebellion and Revolution, p. 72

30- Zagoria, Messali Hadj, p. 20.

31 - هؤلاء التسعة هم: حسين آيت أحمد، أحمد بن بلة، محمد العربي بن مهيدي، محمد بوضياف، مصطفى بن بولعيد، رابح بيطاط، مراد ديدوش، محمد خيضر و بلقاسم كريم.

32- Gene Farmer, " The Leaders Behind Algeria's Rebellion, " Life, Vol. 40, No. 23 (June 4, 1956), pp. 146-160. (I have a copy of this Magazine).

33 - الوهابية اسم للحركة التي أطلق عليها أتباعها، الدعوة إلى التوحيد، والتي تعني الدعوة إلى الوحدة، وسميت بالوهابية من قبل الغرب إشارة إلى مؤسسها محمد بن عبد الوهاب، وهي حركة دينية من نجد ، وسط جزء من السعودية اليوم، وقد ظهرت بداية من سنة 1774 إلى 1818.

34- Sharif al-Mumjahid, « Muslim Nationalism: Iqbal's Synthesis of Pan-Islamism and Nationalism, » The American Journal of Islamic Social Sciences, vol.2, No.1 (July 1985), p.34.

35 - محمد جابر الأنصاري، تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي، 1930 - 1970 الكويت، عالم المعرفة، 1980، ص 223 - 227.

36- Ali Merad, Le réformisme en Algérie de 1925 à 1940, (Paris, Mouton & Co., 1967), p.53-54.

37- Leon Carl Brown, « The Islamic Reformist Movement in North Africa, » The Journal of Modern African Studies, vol.2, No. 1(1964), p.59.

38 - دبور، النهضة الجزائرية الحديثة، ص 34.

39- « Les Ulamas Algériens Réformistes, » La Nouvelle Revue Française d'outre-Mer, No.7-8 (July – August 1955), p.331.

40- Ibid., p.333.

41- Ammar Bouhouche, « The Origins of Political Agitation, »p.7.

42- Denis Walker, “The Origins of the Arab Nationalism in Algeria,” Islamic Culture, vol. 46, No. 4 (1972), p. 288.

43 - البصائر ، 1949 ، ص102.

44 - أنيسة بركات، الحركات السياسية في الجزائر، القسم الثاني، مجلة التاريخ، 10 (1981)، ص 154.

45- For more details about Maraboutism see Vancent Monteil, “Marabouts;” in Islam in Africa, James Kritzeck and William Lewis, eds. (Toronto, Canada: Van Nostrand Co., 1969), pp. 87-108.

46- Ali Merad, Le Réformisme Musulmane en Algérie, pp. 58-76.

47- Pessah Shinar, « The Historical Approach of the Reformist Ulama in the Contemporary Maghreb,” Asian and African Studies Vol. 7 (1971), p. 209.

48- Irwin Wall, "The French Communists and the Algerian War," p. 526.

49- El-Moudjahid, No. 57 (December 1959), p. 20.

50 - البصائر، رقمي 5، 21 (1947) و 22 - 25 (1948).

51 - نفس المصدر، عدد 1 (1947).

52 - نفس المصدر، عدد 3 (1947).

53 - نفس المصدر.

المجاهد، عدد 57 (ديسمبر 15، 1959) ص 20.

55 - البصائر، عدد 12 (1947).

56 - البصائر، عدد 11 (1947).

57- Pessah Shinar, "Some observations on the Ethical Teaching of Orthodox Reformism in Algeria," Asian and African Studies, Vol.8, No.3 (1972), p.289.

58- David and Marina Ottaway, Algeria: The Politics of Socialist Revolution (University of California Press, 1970),

59 - أبو القاسم سعد الله، محضر جلسات جمعية العلماء الجزائريين،

سبتمبر 1954 « مجلة التاريخ، العدد 8 (1980)، ص 25 - 50.

60 - نفس المصدر. ص 46.

61 - نفس المصدر، ص 47.

62- « The Current Situation in North Africa, “ Memorandum” for the National Security Staff : Washington, September 12, 1952, Foreign Relations of the U.S. 1952-1954, Part I (Department of State, Washington D.C. 1983),p. 137.

63- “Les Ulamas Algériens Réformistes,” p.439.

64- El-Moudjahid, No. 1 (1956), p. 26.

65- Ibid., No. 35 (January 15, 1959) , p. 5.

66- Alistair Horne, “Algeria Rising,” The New York Review of Books,(December 5, 1985), p.41.

67- “North African perspective,” Maghreb Digest, Vol. II. No.3 (March 1964), p. 7.

68- Hugh Roberts , “ The Algerian Bureaucracy,” In The Middle East, Talal Assad and Roger Owen, Eds. (New York: Monthly Review Press, 1983), p. 103.

69 - عبد الله عبد الرحمن، الجزائر: إثراء الميثاق الوطني، كيف ولماذا؟ الإصلاح، جانفي 1986، ص 26 - 27.